الفصل السادس

الثقة في عصر العولمة
توجهات سيكولوجية معاصرة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السادس

الثقة في عصر العولمة .... توجهات سيكولوجية معاصرة

القدرات واستثمار الامكانات تواصلا مع التوجهات المعاصرة والسباقة إلى عوالم من الصراع والتنافس والسبق فى مختلف مجالات الحياة.

فى كتابه "صدام الحضارات" وظف هنتنجتون كل ما يمكن من معارف فى سبيل إثبات فرضية أن الثقافة أو الهوية الثقافية الحضارية هى التى تشكل نماذج التماسك والتفكك والصراع فى عالم ما بعد الحرب الباردة، وقدم فى سبيل ذلك مفهوما مرنا للحضارة والثقافة وصنف الحضارات المعاصرة فى العالم واصفا الحضارة الاسلامية بأنها الحضارة التى لا يمكن أن تندمج فى الحضارة الغربية وأن الصراع بينهما حتمى ، كما سماها أى الحضارة الاسلامية بالحضارة المتحدية مشيرا إليها بأنها العدو الأول الذى تربطه بالغرب علاقات متوترة وجد عدائية.

فلماذا لا نتحاور نحن الشعوب ؟ إن أصل العلاقات الانسانية قائم على الحوار والتواصل لا لتحقيق المصالح وحدها ، ولكن لبناء حضارة

obeikandl.com

انسانية مشتركة تقوم على التنوع والتعدد . إن العالم مقبل على عصر تداخلت فيه المصالح والعلاقات الدولية ، وبدأ يرسم ملامح مرحلة قادمة لكنها مرحلة ذات لون واحد ، بل ونموذج واحد للحياة يراد به أن يطبق على البشرية ، ذلك النموذج الذى هو فى الحقيقة ليس إلا نموذجا لمجتمع واحد له تراثه وتاريخه وقيمه وثقافته التى لا تتفق مع كثير من المجتمعات.

وليس من قبيل الصدفة أن يشبه منظرو النظام العالمى الجديد "حالة العولمة بذلك الوصف الذى أطلقه هيجل على نابليون فى معركة ينا "إنه التاريخ الذى يعتلى حصانا جامحا" ، ويوما بعد يوم استطاع رأس المال أن يصنع معارفه وقيمه وأخلاقياته وشاعت فى الأوساط الأدبية مصطلحات فكرية : كالنظام العالمى الجديد، والقرية الكونية ، ونهاية التاريخ ، وصدام الحضارات وأخيرا العولمة . وما الغاية من اشاعتها إلا تحطيم الولاء الفكرى القديم المتمثل فى الوطن والأمة والقومية والعرف والتقاليد والهوية وكل الخصوصيات الوطنية لتحل محلها ولاءات جديدة ذات صبغة عالمية .

وإذا كان صحيحا أن العولمة الراهنة تكشف عن ذروة من ذرى تطور النظام الرأسمالى العالمى فإن التاريخ سيتجاوز شروط نشأتها لتصبح

obeikandl.com

عملية عالمية واسعة المدى ، ستنقل الانسانية كلها – على اختلاف ثراء وفقر الأمم– إلى آفاق عليا من التطور الفكرى والعلمى والتكنولوجى والسياسى والاجتماعى، وفى هذا الإطار نلفت النظر إلى أن ثمة حاجة ملحة إلى منهج صحيح للتعامل مع ظاهرة العولمة بكل أبعادها، فالعولمة عملية تاريخية غير قابلة للإرتداد . والأمر يحتاج من الشعوب إلى نضالات متواصلة لضمان صياغة نسق قيمى عالمى يحترم حرية الشعوب ويسهم فى تقدم الحضارة الانسانية .

ونتساءل هل العولمة ظاهرة حياتية قابلة للاستمرار والبقاء تملك من قوة الدفع والبقاء ما يمكنها من النمو والانتشار؟ والإجابة أنها أى العولمة ما زالت فى بداياتها المبكرة زاخرة بالفرص التاريخية التى تستحق أن نسعى إليها، ومليئة أيضا بالتحديات والمخاطر العالمية التى لن يستطيع التصدى لها إلا من كان مسلحا بالقوة التكنولوجية المنشودة. ومهما يكن من حقيقة العولمة فهى تتطلب عقلية جديدة تستوعب عالمية التفكير والقضايا والواجبات والحقوق والانجازات، وعالمية النجاحات والإخفاقات ، ومن المستحيل التعامل مع هذه المستجدات الفكرية والمتغيرات السلوكية بعقلية

قديمة تقليدية ، فلابد من تربية عقلية جديدة قائمة على أسس معرفية جديدة ، ونظريات ومعادلات علمية وتكنولوجية ، ومفردات فكرية وأدبية وفنية.

إن العولمة حقيقة واقعة حين تفهم على أنها التقارب الحتمى بين النظم والتجارب الانسانية تقاربا صنعه سقوط الحواجز والتقدم العلمى الهائل فى وسائل وفنون الاتصال وتبادل المعلومات . على أن هذا التقارب ليس قادرا على أن يخلق – بذاته ومن تلقاء نفسه – واقعا انسانيا أفضل مما كان قبله وإنما الأمر يتوقف فى النهاية على ما نقيمه لأنفسنا من تفاعل مع هذا الواقع الجديد.

إن الدخول فى عالم العولمة لم يعد خيارا بل ضرورة يفرضها الواقع والتطور العلمى والتكنولوجى ، ويفرض فى نفس الوقت أهمية الارتقاء بالتعليم والانفتاح على الفكر المستقبلى ووسائط المعرفة المادية والإلكترونية،فمن يملك ناصية العلم والتكنولوجيا هو من له حق البقاء فى هذا العالم.

والعولمة هى طور من أطوار الحضارة الانسانية المعاصرة تتجاوز الدول والقوميات والثقافات الوطنية لتحل بدلا منها منظومة واحدة ، ومن

البديهى أنه كلما كانت الدول ضعيفة اقتصاديا وسياسيا ومعرفيا كلما كانت أكثر خضوعا لنظام العولمة وتضييعا لهويتها الثقافية ، إن أخطر ما فى العولمة هو التوجه الثقافى إلى طمس هوية الأمم وتدمير شخصيتها الثقافية لصالح أمة معينة.

ونتساءل: هل العولمة قدر لا مفر منه؟ ، سؤال يتردد كلما برزت مستجدات جديدة فى التحولات السريعة حول العالم ، والتى ربطت خيوط التواصل بين أطراف العالم حتى كادت أن تجعلها قطعة واحدة ، فسادت رؤية واحدة للسياسة والاقتصاد ، بل كادت هذه الرؤية أن تصبح نهاية "الرؤى" أو "نهاية العالم"كما صورها الكاتب الأمريكى الياباني الأصل – فرنسيس فاكوياما – انبهارا بمتغير تاريخى فى لحظة سريعة التحول شديدة التأثير ، ولكن ورغم ذلك فمازالت هناك أراض صلبة تنفرد برؤيتها وتستعصى على الوقوع فى الشبكة وتدعو إلى إعلان شأن الخصوصية الثقافية رافضة ثقافة القالب الواحد من موقع عقائدى أخلاقى ولكنها وفى الوقت نفسه لا ترى فى العولمة شرا مستطيرا ، وتسعى دائما لترسيخ

حضارة انسانية المبدأ والموقف والمنطلق ، تقوم على الحرية واحترام الآخر وتقدير دوره مهما كان صغيرا.

وعندما يكون النموذج الانسانى محترما وجذابا فإنه يأخذ بالعقول والألباب، وعادة تختلف النماذج من حيث درجة تسويقها من فرد إلى آخرومن مجتمع إلى آخر، وفى البيئات الرصينة التى يكون فيها التزام واعتزاز بمفردات الثقافة ومعاييرها يصعب على أى نموذج يحمل ثقافة مغايرة أن يتغلغل أو يجد أرضا خصبة للإنتشار، أما عندما يضعف التزام المجتمع بثقافته وتكبر الهوة بين أجياله تجد النماذج المغايرة مجالا واسعا للنمو والازدهار، الأمر الذى يسبب الأزمة والفوضى ، والسؤال هو: فى أى ظروف مواتية يسرى نموذج العولمة فى حياة أبنائنا الثقافية والنفسية ؟

إن السلوك الانسانى هدف للثقافة تزوده بوسائل مشروعة لتحقيق هذه الأهداف ، والانسان كما ترى نظرية الاختيار لجلاسر مجهز بخمس حاجات أساسية تتطلب الاشباع وكلها يبرمج بحسب الثقافة الانسانية ، وبخلاف الحاجات البيولوجية تأتى الحاجات الأربع الأخرى وهى : الحاجة للإنتماء والمحبة وتقمص النماذج المحيطة ، الحاجة لتقدير القوة والبأس

والاعتراف بهما ، الحاجة للحرية والاختيار والمشاركة فى السلطة والقرار ، والحاجة للترويح وإلى الوجود فى بيئة ودودة تشحن الفرد بالطاقة النفسية وتجدد النشاط لديه وتزيل همومه.

كما أن المطلوب هو تعليم الأبناء مستويات الارتقاء بالنفس الانسانية وتدريبهم على الرياضات الوجدانية التى تفعل ذكاءهم الانفعالى بما تحققه من نمو وجدانى مستمر وضبط انفعالى يسهم فى تأسيس شخصيات راسخة مؤثرة ، تلتزم بقيمها وتصوراتها وتتعامل مع أسواق العولمة بذوق ولباقة.

إن النشاطات الانسانية العقلية تتمثل فى أشكال فكرية ومعنوية وجمالية ودينية واجتماعية ، والذكاء هو تلك القدرة على فهم العلاقات بين الأشياء والأشخاص والأحداث، ويحتاج نمو الذكاء إلى تدريب دائب ومراقبة عميقة للأمور وضبط داخلى ، أما الملاحظة السريعة الناقصة والانتقال من انفعال إلى آخر فيمنعان من تطور الذكاء ونموه.

غير أن الذكاء وحده لا يكفى لتقدم الانسانية على دروب المعرفة ، ذلك أن عمل البعض فى عصر العولمة مزيج من الالهام والمنطق ، ونحن لا نفكر بعقولنا فقط وإنما بمجالات أخرى من الوعى المتصف بالعاطفة

والانفعال بدرجات مختلفة.

إن النشاطات الانفعالية دفاعات عاطفية توجهنا إلى العمل الذى لا يقوم الذكاء إلى برسم مخططه ، وبذلك يكون الحس الخلقى هو قدرة الفرد على ضبط قواه الانفعالية وسيطرته على ذاته متلائما مع متطلبات أساسية للحياة الشخصية والاجتماعية ، ومرتكزا على ركيزتين هما : العقل والتجربة الانسانية ، ليشكل بذلك مجموع الذكاء الحسى الجمالى والدينى والاجتماعى.

ويحتاج المرء لكى يسيطر على العالم إلى قوتين : الذكاء والشعور الاجتماعى" ونحن فى حقيقة الأمر نملك عقلين : عقل يفكر ويتأمل وآخر يحس ويشعر، وبهما نحوز المعرفة والوعى والتأمل من غير أن يطغى أحدهما على الآخر إلا فى حالات الغضب والثورة والاندفاع واليأس والاحباط، وكل ما من شأنه أن يخرج المرء عن حد توقعاته فيسلك على نحو يخلو من المنطق والعقلانية.

ونحن نحتاج إلى ذكاء من نوع آخر يكشف عن المواهب والقدرات ويتعرف على الاهتمامات ويلبى الطموحات ويميز بين الأحاسيس الخاصة ،

وينمى امكانات الأفراد لتكوين تصور سوى عن الذات ، ونجاح مهنى فى المستقبل وحياة شخصية هانئة وحسن تقدير وتوافق ، واستفادة من دروس الماضى فى مواجهة المواقف الجديدة ، بحيث تكون قدرة الفرد على أن يسلك سلوكا ذكيا هو أغنى ما يمتلكه الفرد الذى يمكنه تخطى حدود الزمان والمكان والتطلع إلى مستقبل عريض والدخول إلى منافسات لاحدود لها .

وقد ركزت معظم دراسات العولمة فى الأعوام الثلاثين الماضية على الناتج الثقافى والاجتماعى ، وعلى التبادل التجارى الاقتصادى وتأثير ذلك كله على المجتمعات ، لكن قلة من الدراسات استهدفت اختبار تأثيرات العولمة على العلاقات البين شخصية والاجتماعية بشكل خاص ، وخرج علينا باديلا وآخرون *Badilla et al.,* بمؤلفهم الأشهر: الحب والعولمة ... التحولات فى الحميمية فى العالم المعاصر *Love and Globalization : Transformation Of Intimacy In Contemporary World* . ، والكتاب عبارة عن أجزاء ثلاثة يكشف الأول منها عن نتاج العولمة متمثلا فى تفاوتات وتباينات وتحيزات وتقلبات وعدم تكافؤ فرص بين الأفراد ، ويشرح الجزء الثانى ما طرأ على علاقات الحب والزواج من تغيرات ،

ويتناول الجزء الثالث جوانب تتعلق بأسلوب الحياة وما سماه سياحة العلاقات، وما يترتب على العولمة من إعادة النظر فى أبعاد العلاقات الشخصية والاجتماعية .

ويعد الكتاب محاولة من محاولات عدة لأن سنة العولمة *To Humanize Globalization* ، وفهم تضميناتها على مستوى العلاقات الانسانية.

وقد لا ننسى مارجريت ميتشيل *Margaret Mitchel* مؤلفة رواية " ذهب مع الريح" *Gone With The Wind* عندما تقول : " لم أكن أبدا واحدة من أولئك الذين يمكنهم أن ينكفئوا بصبر ليلتقطوا قطع الخزف المتكسرة على الأرض ، ثم يقومون بلصقها مرة أخرى ويقولون لأنفسهم : حسنا لا بأس إنه يماثل الإناء القديم ولا يختلف عنه كثيرا .

إن الشىء الذى يتكسر يكون قد تكسر وانتهى الأمر ، واسأل نفسك : بم تشعر عندما ترى إناء خزفيا جميلا به شرخ فى أحد جوانبه ؟... هل يمكن أن تقبل على شرائه أم ستبحث عن آخر ، إن من الصعب علينا أن ننسى الشروخ الموجودة ، فإذا أمكننا أن نخفيها فقد نشترى الإناء ونتوقف

obeikandl.com

عن طلب الكمال المطلق ، فهل العلاقات الانسانية مثلها مثل إنـــاء خزفـــى سقط على الأرض وتكسر إلى قطع صغيرة ؟ كثيرا ما شغل الكاتبة البحث عن إجابة هذا السؤال ، وفى عصر العولمة الذى نعيشه على كافة الأصعدة هناك أسباب كثيرة تؤدى إلى انهيار العلاقات بالشركاء منها أن يسىء إليـــك الآخر وأن يغشك ، وأبسطها وأخطرها أيضا فى رأى الكاتبـــة أن يختفـــى عندما تكون فى حاجة إليه ، وعندها قد لا يمكنك أن تواجهه ، وقـــد تفقـــد الرغبة فى الاستمرار فى علاقتم به ، لأنك تعرف أنك لن يمكنك أن تسامحه أو تغفر له ، كما لن يمكنك أن تعاتبه أو أن تعاقبه .

وإذا ما تكرر ذلك فمتى يجب أن نلقى بالإناء ونبحـــث عـــن آخـــر أفضل منه ؟ عند مراقبتنا لكثير من العلاقات من حولنا وفى زمن العولمـــة سنجد أن معظمها يعانى من هذه الشروخ التى تم إعادة لصـــقها ، وجميعنـــا لديه هذا الإناء بل جميعنا هذا الإناء بالنسبة لغيرنا الذين تربطنا بهم علاقات، ويجب ألا ننسى أن تخدير الجراح لفترة وجيزة يجعلها أشد إيلاما فى نهايـــة الأمر.